اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ وَدَوْرُهَا فِي وِحْدَةِ الأُمَّةِ

إعداد الأستاذ الدكتور:

محمد موسى السعيد جباره

أستاذ أصول اللغة، ووكيل كلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

الملخص

إن اللغة – أيّ لغةٍ – هي المعبرة عن شخصية الأمة الناطقة بها، تَصِفُ حاضرهم مِنْ تَقَدُّمٍ ورُقِيٍّ، أوْ تَخَلُّفٍ وانحطاطٍ، وتُسَجِّل آمالهم وآلامهم، فلا عجب أنْ تكون اللغةُ هي المعبرةَ عن ماضي الأمةِ وحاضرها ومستقبلها.

واللغة العربية –في ذلك كله– شأنها شأنُ بقية اللغات، نقرأ أدبها الجاهليّ – مثلاً– فنتعرف من خلاله على حياة العربي، طبيعتِها، وخصائصِها، وما كان يحبه العرب ويألفونه، وما يكرهونه ويأنفون منه، ومن خلاله نعرف – أيضًا – عاداتِهِمْ في أفراحهم وأتراحهم، وحربهم وسِلْمهم، وديانَاتِهِمْ، وأخلاقِهِمْ، وشعائِرِهِمْ وطقوسِهِمْ، وأسواقِهِمْ، ونعرف منه – كذلك– تركيبَتَهُمُ الاجتماعيَّةَ القَبَلِيَّةَ، ورحلاتِهِمْ داخل الجزيرة العربية وخارجها.

كما نتعرف على البيئة العربية في ذاك الزمان، طبيعتِهَا وخصائصِهَا، وما يُوجد فيها من نباتٍ، وجبالٍ، وأوديةٍ، وآبارٍ، وما ينتشر فيها من حيوانات، وغير ذلك كثير.

ومن هنا تأتي أهمية هذا الموضوع (اللغة العربية ودورها في وِحْدَة الأمة) حيث يجلي هذا البحث دور اللغة العربية في وِحْدَة الأمة وبناء الحضارة العربية الإسلامية.

Arabic Language and its Role in the Unity of the Nation

By: Prof. Mohammed Moussa Alsaid Gebara

Professor of Linguistic

Vice Dean of the Faculty of Islamic and Arabic Studies

(Females Branch) in Port Said

Abstract

The language, any language, is the mother tongue which expresses the character of its nation, its present and advancement or its deterioration and backwardness. It also records their hopes and pains. Then, it is not surprising to handle the language as the tool that expresses the past, present and future of any nation.

Arabic language, like any other language, has its Jahiley literature, if it is read we can get an idea about the life of an Arab citizen, its nature, its characteristics, what that Arab loved and used to do, what he disliked and abhorred. Through that reading, we can also learn about the Arabs' wedding and death customs, war and peace traditions, their religion, their manners, their rituals and their markets. In addition, we learn about their social and tribal structures as well as their travels within the Arabian Peninsula or abroad.

We also learn about the Arabian environment in that time; its nature and its characteristics concerning what it includes; plants, mountains, valleys, wells and the animals roaming around…etc.

The importance of this topic arises from the role of Arabic language and how it keeps the unity of the nation together with building up the Arabic and Islamic civilization.

Key words: Arabic language, unity of the nation, building up the civilization, The Arab environment.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، أما بعد..

فإن اللغة – أيّ لغةٍ – تربط بين أبنائها الناطقين بها، فهي جسر التواصل فيما بينهم، بها يتفاهمون، وعن طريقها يتواصلون، ويَرْوُون أدبهم، ويعرفون تاريخهم، وبخَطِّها يحفظون تراثهم، ويُخَلِّدون مآثرهم، فيعتزون ببطولاتهم وانتصاراتهم، وبهذا تَحْفظ اللغةُ وِحْدَة الأمةِ على مستوى المكان والزمان.

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، فالأمم المختلفة تعمل كلُّ واحدة منها على انتشارِ لغتها، وكثرةِ عدد الناطقين بها؛ لتحقق لنفسها نفوذًا ماديًّا ومعنويًّا، ويرجع سبب ذلك إلى ما تحوزه اللغة من أهمية كبيرة لا يستطيع أحدٌ أنْ ينكرها.

فاللغة – أيّ لغةٍ – هي المعبرة عن شخصية الأمة الناطقة بها، تَصِفُ حاضرهم مِنْ تَقَدُّمٍ ورُقِيٍّ، أوْ تَخَلُّفٍ وانحطاطٍ، وتُسَجِّل آمالهم وآلامهم، فلا عجب أنْ تكون اللغةُ هي المعبرةَ عن ماضي الأمةِ وحاضرها ومستقبلها.

واللغة العربية –في ذلك كله– شأنها شأنُ بقية اللغات، نقرأ أدبها الجاهليّ – مثلاً– فنتعرف من خلاله على حياة العربي، طبيعتِها، وخصائصِها، وما كان يحبه العرب ويألفونه، وما يكرهونه ويأنفون منه، ومن خلاله نعرف – أيضًا – عاداتِهِمْ في أفراحهم وأتراحهم، وحربهم وسِلْمهم، وديانَاتِهِمْ، وأخلاقِهِمْ، وشعائِرِهِمْ وطقوسِهِمْ، وأسواقِهِمْ، ونعرف منه – كذلك– تركيبَتَهُمُ الاجتماعيَّةَ القَبَلِيَّةَ، ورحلاتِهِمْ داخل الجزيرة العربية وخارجها.

كما نتعرف على البيئة العربية في ذاك الزمان، طبيعتِهَا وخصائصِهَا، وما يُوجد فيها من نباتٍ، وجبالٍ، وأوديةٍ، وآبارٍ، وما ينتشر فيها من حيوانات، وغير ذلك كثير.

ومن هنا تأتي أهمية هذا الموضوع (اللغة العربية ودورها في وِحْدَة الأمة)، وقد تناولته من خلال خمسة مباحث، تسبقها مقدمة وتقفوها خاتمة، واتبعت فيه المنهج الوصفي المعتمد على وصف الظاهرة اللغوية وتحليلها.

أما المقدمة فتحدثت فيها عن أهمية البحث ومنهجه وخطته.

وفي المبحث الأول تناولت تعريف اللغة عند ابن جني.

وخصصت المبحث الثاني للحديث عن أهمية العناية باللغة؛ لذا جاء تحت عنوان: العناية باللغة ضرورة.

وفي المبحث الثالث كان الحديث عن: عوامل بقاء الفصحى.

ثم كان المبحث الرابع بعنوان: أهم وسائل نشر الفصحى لعصمة الأمة من التفكك.

وفي المبحث الخامس تحدثت عن: دور اللغة العربية في وِحْدَة الأمة وبناء الحضارة العربية الإسلامية.

ثم كانت الخاتمة وفيها سجلت أهم نتائج البحث.

وأردفتها بفهرس حَوَى أَهَمَّ المصادر والمراجع.

والله أسأل أن يوفقنا جميعًا لما فيه الخير لديننا ولغتنا وأمتنا، اللهم آمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول:
تعريف اللغة

أَوْلى اللغويون العربُ اللغةَ العربيةَ اهتمامًا كبيرًا، وكان رائدَهُمْ في ذلك الإمامُ أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، فقد عَرَّف اللغة باعتبارها لغة إنسانية دون النظر إلي جنسية الناطقين بها، لذا فهو تعريف للغة أيًّا كانت هذه اللغة، حيث ذهب ابن جني إلي أن حدّ اللغة (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم).[١]

وهذا التعريف جاء وافيًا، لأنه اشتمل على أهم العناصر التي يجب توافرها، كي يستطيع الإنسان تصور اللغة، وفهم طبيعتها، وهذه العناصر هي:[٢]

١- صوتية اللغة:

فاللغة في صورتها المادية ما هي إلا نظام من الأصوات، التي يصدرها جهاز النطق الإنساني، وهذه الأصوات – دون شك – أسبق وجودًا من الرموز الكتابية، التي استعملها الإنسان لنقل الأفكار عبر المسافات المكانية والزمانية.

٢- أن اللغة الإنسانية ظاهرة اجتماعية:

فلا يتصور وجود لغة إلا في مجتمع، به تنشأ وتحيا، وهذا التعريف أبرز الجانب الاجتماعي للغة عندما نصَّ على أنها يعبر بها كل " قوم " أي جماعة، فهي أداة قومية اجتماعية في طبيعتها ووظيفتها.

٣- وظيفة اللغة:

فاللغة الإنسانية لها وظيفة محددة، فليست مجرد أصوات لا فائدة من ورائها، والتعريف

---

[١] الخصائص ١/ ٣٣، تحقيق: محمد علي النجار، ط٣، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[٢] ينظر: مدخل إلي علم اللغة الحديث ص١٥ وما بعدها، ط٤، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، علم اللغة نظرة عربية، د. محمد حسن جبل، ص٦١ وما بعدها.

الذي معنا أبرز الوظيفة الأساسية للغة وهي: التعبير عما في النفس، أي: إبرازه ونقله من داخل النفس إلي خارجها، وهذا التعبير إنما يكون عن " الأغراض " التي في النفس، والأغراض هي الأهداف المقصودة، فلا يعتد في اللغة إلا بالأصوات التي قُصد بها التعبير عما في النفس.

وعلى ذلك فهذا التعريف يوصف بالدقة والشمول، ومن دقته أنه أشار – ضِمْنًا– إلي الجوانب التي تستوجب الدراسة في اللغة، فهناك الجانب الصوتي الذي يهتم بطبيعة أصوات اللغة مفردة ومركبة في كلمات وجمل، والقوانين الضابطة لأداء تلك الأصوات في كل أحوالها لوظيفتها. وهناك الجانب التعبيري الذي يستدعي دراسة التقابل بين الأصوات ومعانيها أي: دلالتها عليها، وطبيعة تلك الدلالة وضوابطها وشروطها وأبعادها بين الأصوات والأشياء والمعاني التي في النفوس.

وهناك الجانب الاجتماعي الذي يستدعي دراسة ما بين اللغة والمجتمع من علاقة وتأثير، ولا شك أن دراسة العلاقة بين اللغة والمجتمع تكفل الكشف عن حقائق لا يَسَعُ اللغوي أن يتجاهلها.

وإذا كان تعريف ابن جني قد أشار إلي تلك الجوانب الصوتية والدلالية والنفسية والاجتماعية، والتي تستوجب المناهجُ والاتجاهاتُ الحديثةُ دِراسَتَها في مجال اللغة، فإننا نطمئن إلي جودته ودقته.

المبحث الثاني:

العناية باللغة ضرورة للحفاظ على هوية الأمّة ووحدتها

الحفاظ على الهوية – بكل ما تشتمل عليه من: دين، ولغة، وتاريخ، وثقافة، وعادات وتقاليدَ – يعنى الحفاظَ على الذات من الذوبان في التيارات الوافدة علينا، والعولمة قد تجرّ إلي (ذوبان الخصوصية والانتقال من الخاصّ إلى العامّ، ومن الجزئيّ إلى الكليّ، ومن المحدود إلى الشامل، ومن المُتَعَيَّن إلى اللا مُتَعَيَّن.

وعلى خلاف ذلك يأخذ مفهوم الهوية اتجاهًا متقاطبًا كليًّا مع مفهوم الشمولية والعمومية، فالهوية انتقال من العامّ إلى الخاصّ، ومن الشامل إلى المحدود، ومن اللا مُتَعَيَّن إلى المُتَعَيَّن، فمفهوم الهوية يبحث عن التمايز والتباين والمُجَسّد والمُشَخّص والمُتَفَرّد والمُعَيّن، أما العولمة فهي بحث لا ينقطع عن العام والشامل والمجرد والمتجانس واللامحدود).[1]

ولِمَا تحوزه اللغة من أهمية كبيرة في الحفاظ على الهوية للحضارة العربية، لم يستطع أَحَدٌ من الباحثين – رغم اختلاف توجهاتهم – أن يُسْقطها من أركان الهوية (فالنهضة الحضارية انطلقت في القرن التاسع عشرَ مستلهمة الفيض الروحي، فأقامت تصوّرًا للهوية عناصرُه: الدينُ واللغة والتأويل، وهذا التأويل مداره النص والتاريخ.

وامتدّ هذا الاستلهام بدفقه على مدى القرن العشرين حتى أصبحت تلك الثلاثية عقدًا جامعًا للصحوة مهما اختلفت النِّحَل والأجناس، وانعطف على ذاك التصوّر لأركان الهوية تصوّرٌ قوميٌّ أوَّلٌ كانت دعائمُه النّسَبَ واللغةَ والدينَ، والنَّسَبُ هو الارتباط السُّلالي المعروف بالعِرْقِ أو الجنس، ثم تبلور تصورٌ آخرُ أبْقَى على النَّسَب واللّغة ولكنه استَبدل

---

[1] تصدعات الهوية وهزائمها قراءة في جدل الهوية والعولمة د. علي وطفة، مقال منشور على شبكة الإنترنت http://www.awu-dam.org/alesbouh%20802/820/isb820006.htm

بالدين الانتماءَ إلي التاريخ حتى يُقحِم في الفلسفة النضالية أبناءَ كل المعتقدات، وإذا باللّغة هي الركن الوحيد القارّ الذي يتواتر بين النظريات الثلاث).[١]

وإذا كانت اللغة إحدى مكونات الهوية لأي حضارة إنسانية، فإن اللغة العربية – دون شك – من أهم مكونات الحضارة العربية الإسلامية (فمنذ فجر تاريخ هذه العربية لم ينقطع حتى الآن استعمالها في الألسن الناطقة بالضاد، وساعد على استمرار هذا الوجود ذلك التراث الأدبي العظيم، وفي قمته القرآن، تلكم المعجزة البيانية الخالدة، التي كفلت للفصحى طول العمر، كما منحتها استقرارًا في الصورة اللفظية والتعبيرية على مدى القرون)[٢].

ومن هنا تأتي أهمية الحفاظ عليها، والعناية بها، فهي رابطة من أقوى الروابط بين أبناء الأمة العربية، ولولاها ما تواصل عراقي بمصري، ولا سعودي بسوري، ولولاها ما انتفع الشامي بالتراث المصري، ولا المصري بالتراث الشامي، فهي جامعة الأمة العربية، ووعاء الوحي السماوي، وحافظة الحضارة العربية الإسلامية في أزهى عصورها.

والفصحى كما أنها الرباط الثقافي الذي ربط – ولم يزل يربط – بين الشعب العربيّ من المحيط إلي الخليج، فهي – كذلك – تربط بين ماضي الأمة وحاضرها، وتتميز بكثرة مفرداتها، وعذوبة ألفاظها، وبأنها ليست قاصرة على العرب وحدهم، فملايين المسلمين في شتى أنحاء العالم يطلبونها؛ لارتباطها بدينهم وثقافتهم الإسلامية.

وإذا أردنا الحفاظ على هويتنا وَوِحْدَة أمتنا العربية الإسلامية، فعلينا أن نحافظ على لغتنا،

---

[١] الهُويّة اللّغويّة ورياح السياسة د/ عبد السّلام المسدّي، مقال منشور على شبكة الإنترنت http://www.afkaronline.org/arabic/archives/sepoct2004/mseddi.html

[٢] العربية الفصحى – نحو بناء لغوي جديد، تأليف هنري فليش ، تعريب وتحقيق د/ عبد الصبور شاهين ص٩ (من مقدمة المترجم) – ط – الثانية ١٩٨٣م – دار المشرق – بيروت – لبنان.

لأنها قوام هذه الوِحْدَة وهذه الهوية؛ لأنَّ (اللغة – بلا منازع – أبرز السمات الثقافية، وما من حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضةٌ لغويّةٌ، وما من صراع بشريّ إلا ويُبْطِنُ في جوفه صراعًا لغويًّا، حتى قيل: إنه يمكن صياغة تاريخ البشرية على أساسٍ من صراعاتها اللغوية)[1]؛ ومن أجْل ذلك عَمَدَ المستعمرون – في شتى البلاد العربية – إلى محاولة القضاء على اللغة العربية بكل الوسائل الممكنة، لأن هذا هو السبيل للسيطرة التي لم تستطع تحقيقَهَا الجيوشُ الجرارةُ، وقد عبَّر عن ذلك بوضوح (بينو) أحَدُ وزراء فرنسا السابقين، حيث قال: (لقد خسرت فرنسا إمبراطوريةً استعماريةً، وعليها أنْ تُعَوضها بإمبراطورية ثقافية).[2]

فالاستعمار كان يعتمد – فيما مضى – على جيوشه ومدافعه، أما الآن فإنه يعتمد على نشر لغته وثقافته وعاداته وتقاليده؛ وبذلك تعرضت هويةُ الأمةِ العربيةِ لعملية تغيير واسعة النطاق، والوسيلةُ الأهَمُّ لتحقيق ذلك هي اللغة، فإذا ما نَسِيَ أبناءُ العربيةِ لغتهم أو أهملوها، فإنهم – دون شك – سيكونون أسرى الحضارة التي يتكلمون بلغتها، فلن يعرفوا عاداتٍ غير عاداتها، ولا تقاليدَ غير تقاليدها، ولا ثقافةً غير ثقافتها، وحينئذ سيصبحون مسخًا مشوَّهًا، لا إلى الحضارة العربية يَنْتَمِي، ولا إلى الأخرى يَنْتَسِبُ.

وإنَّ ما يَحْدُث اليوم من إهمالٍ لمُقَوِّمٍ من أهم مقومات وِحْدَة الأمة والحفاظ على هويتها، حدث من قبل، فابْنُ منظور (ت ٧١١هـ) عندما تحدّث عن سبب تأليفه معجم (لسان العرب) تحدث حديث المُتَحَسِّر على ما آلتْ إليه اللغةُ العربيةُ على ألسنة أبنائها، وما آل إليه أهْلُها من انصرافٍ عنها، وفَرَحٍ بغيرها، فقال: (فإنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة ... وذلك لِمَا رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح

---

[1] الثقافة العربية وعصر المعلومات د/ نبيل علي ص ٢٢٨ – ط– عالم المعرفة – الكويت٢٠٠١م.

[2] من قضايا اللغة العربية المعاصرة، لمجموعة من الباحثين، ص٢٣، – ط – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩٠.

اللَّحْنُ[1] في الكلام يُعَدُّ لَحْنًا مردودًا، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودًا، وتنافَسَ الناسُ في تصانيف التَّرْجُمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمنٍ أهلُه بغير لغته يَفْخرون، وصَنَعْتُهُ كما صنع نوحٌ الفُلْكَ وقومُه منه يَسْخرون).[2]

(1) لَحَنَ الرّجلُ يَلْحَنُ لَحْنًا: تكلَّمَ بلُغته، ولَحَنَ له يَلْحَنُ لَحْنًا: قال له قولاً يفهمه عنه ويخفى على غيره، واللَّحَنُ- بفتح الحاء، ويرى ابن الأعرابي أنها بالسكون-: الفِطْنَةُ، ولَحِنَ لَحَنًا: فَطِنَ لِحُجَّته وانتبه لها، واللَّحْن:التعريض والإيماء. ينظر: لسان العرب، لابن منظور٥/ ٤٠١٣، ٤٠١٤ (ل ح ن).

(2) لسان العرب، لابن منظور ١/ ١٣- ط- دار المعارف بمصر.

المبحث الثالث

عوامل بقاء اللغة العربية

من المؤكد أن هناك عوامل عديدة للحفاظ على لغتنا العربية، وسنقف – بإذن الله تعالى- مع بعضها في السطور التالية.

١ – القرآن الكريم:

اللغة العربية هي لغة الوحي المنزل، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] وهي محفوظة بحفظ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ [الحجر:٩] فحفظ القرآن يستلزم حفظ اللغة التي نزل بها.

والقرآن الكريم أهم عوامل بقاء اللغة العربية، فالمسلمون جميعًا عَرَبِيُّهُم وعَجَمِيُّهُم يقرؤونه، وبهذا تكون اللغة العربية التي بها نزل القرآن الكريم عاملاً مُهِمًّا من عوامل وِحْدَة الأمة العربية – خصوصًا – وتماسكها.

وإذا كانت اللغةُ العربيةُ لغةَ الوحي المنزل ووعاءَه – كما سبق – فليس معنى ذلك أنها لغة دينية، كما ذهب إلي ذلك المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي، فالعربية كما هي لغة الوحي المنزل فهي – كذلك – لغة العلم والأدب، فقد أعانت الشعراء والأدباء – على مرّ العصور – على التعبير عما يدور في أذهانهم، ويعتمل في نفوسهم، فصاغوا بها أرَقّ القصائد، وأجمل المقطوعات النثرية، وصِيغتْ بها كلّ الأشكال الأدبية المعروفة صياغة عالية.

وقد استفادت اللغة العربية من نزول القرآن الكريم بها فوائد عظيمة، أشار إليها إجمالاً أحد الباحثين في حديثه عن أثر علم القراءات القرآنية على الدرس اللغوي، فقال: (الحق أنّ تدوين علم القراءة[١] أفاد المسلمين فائدة لم تحظ بها أمة سواهم، وذلك أنّ البحث في مخارج الحروف، والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة، لتيسير تلاوة كلمات القرآن على أفصح

---

[١] أي: عِلْم القراءات.

وَجْهٍ وَأَبْيَنِهِ، كان من أبلغ العوامل في عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفُصْحى وأسرارها).[1]

(أما شبهة اللغة الدينية، فإن الداعي إليها...هو أن الدعاة والمبشرين والمستعمرين، لما دخلوا بلاد الإسلام في إفريقية والهند وغيرهما، ورأوا الطفلَ الصغيرَ والجاريةَ والغلامَ، كلَّهم يحفظ القرآن عن ظهر قلب، ويتلوه في صلاته خاشعًا باكيًا، ورأوا أن بعضهم لا يعرف من العربية إلا ما يحفظ من القرآن، ولا يحسن يقرأ شيئًا من العربية إلا القرآن، ظنوا أن ذلك كذلك، لأن اللغة العربية لغة دينية، وهذا ظن سخيف جدًّا عندنا بالطبع؛ وذلك لأن كل مسلم، عربيًّا كان أو غير عربيّ يعلم علمًا يقينيًّا أن القرآن كلام الله، وأن مجرد تلاوته عبادة يثاب المرء عليها، وحفظَه عبادة أخرى، وفهمَه عبادة ثالثة، والتفقُّهَ في معانيه عبادة رابعة، والنظرَ في كتابته عبادة خامسة.

ولكل شيء من هذه العبادات ثواب، فضلاً عن أنه كلام الله الذي يفارق كلام البشر من كل وجه، وهو من الله وإليه، يتعبد المسلم بأن يستودعه صدره، لأنه كلام ربه، وعلى هذا المسلم بعد ذلك أن يتعلم إن استطاع لغة القرآن، ليفهمه ويتفقه فيه، وذلك خير ما يفعل، وإلا اقتصر - إذا لم يستطع - على معرفة دينه بلسانه هو، ودينه هو ما يتضمنه القرآن والحديث، مما يشمل كل صغيرة وكبيرة في حياته الخاصة أحيانًا، وحياته العامة أحيانًا أخرى...وهذا كافٍ في الدلالة على أن اللغة الفصحى، أو اللغة العربية، ليست لغة دينية بالمعنى الذي تُعدُّ به اللاتينية – مثلاً – لغة دينية).[2]

---

[1] التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، عني بتصحيحه أوتو برتزل، ص ج من مقدمة الناشر – ط – مكتبة المثنى ببغداد – مصورة عن طبعة استانبول – مطبعة الدولة ١٩٣٠.

[2] أباطيل وأسمار، للأستاذ محمود محمد شاكر ص١٩٢ – ط – الثالثة ٢٠٠٥م – الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٢- الاعتزاز باللغة العربية:

وإذا كانت اللغة العربية لغةَ الوحي المُنَزَّل، فهي - كذلك - لغة العلم والأدب، ووسيلة التفاهم بين أبناء الأمة العربية، وهي اللغة التي استوعبت الحضارة العربية الإسلامية إبّان ازدهارها، فعن طريق الترجمة إليها انتقلت بعض حضارات الأمم الأخرى كالحضارة الفارسية، والهندية، واليونانية الرومانية، إلى فلاسفة المسلمين وعلمائهم، ثم إلى أوروبا إبّان عصر النهضة، وهي لذلك كله جديرة بالاعتزاز بها، والاهتمام بشأنها، وصرف المجهود لرفع رايتها.

وأكد ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) أهميةَ اتساعِ العلمِ باللغة العربية في فَهْم القرآن الكريم فقال: (وإنما يعرف فضل القرآن مَنْ كثر نظره، واتسع علمه، وفَهِمَ مذاهب العرب وافتنانها بالأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات).[١]

وعقد ابن جني (ت ٣٩٢هـ) في كتابه (الخصائص) بابًا بَيَّنَ فيه أهمية العلم باللغة في فهم القرآن والسنة، وجاء هذا الباب تحت عنوان (باب فيما يُؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية) وصدّره بقوله: (اعلم أن هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب، وأن الانتفاع به ليس إلي غاية، ولا وراءه من نهاية، وذلك أنّ أكثر من ضلّ من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المُثلى إليها، فإنما استهواه، واستخفّ حلمه، ضعفُه في هذه اللغة الكريمة الشريفة).[٢]

والاعتزاز باللغة سبيل من سبل إعزاز اللغة، بل إعزاز أبنائها، فعزة الناطقين باللغة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بعزة اللغة نفسها، وهذا الارتباط الوثيق يوضحه ابْنُ حزم الأندلسي (ت

---

(١) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة ص١٢ – تحقيق السيد صقر - ط – الثانية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م – دار التراث بالقاهرة.

(٢) الخصائص، لابن جني ٣/ ٢٤٨.

٤٥٦هـ) فيقول: (فإن اللغة يَسْقط أكثرها، ويَبْطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنما يُقَيِّد لغةَ الأمَّةِ وعلومَها وأخبارَها قوّةُ دولتها، ونشاطُ أهلها وفراغُهم، وأما مَنْ تَلِفَتْ دولَتُهم، وغَلَبَ عليهم عدوُّهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذُّلّ وخِدْمَةِ أعدائهم، فَمَضْمُونٌ منهم موتُ الخواطر، وربما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم، ونسيانِ أنسابهم وأخبارهم، وبُيُودِ علومهم، هذا موجودٌ بالمشاهدة، ومعلوم بالعقل ضرورة).[1]

كما يتحدث ابْنُ خلدون (ت ٨٠٨هـ) عن الأمر نفسه، وهو الارتباط الوثيق بين عزة الأمة وعزة لغتها، وذلك عندما تَحَدَّثَ عن لغات أهل الأمصار، وأنها تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها، أو المختطين لها، وأن اللسان العربي فسدتْ مَلَكَتُهُ، وتَغَيَّرَ إعرابه بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأعجمية، وأنه مع ذلك بقي في الدلالات على أصله، وسُمِّي لسانًا حضريًّا في جميع أمصار الإسلام، ثم قال:

(ولَمَّا تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق، وزناتة والبربر بالمغرب، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية فسد اللسانُ العربيّ لذلك، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذَيْن بهما حُفظ الدِّينُ، وصار ذلك مُرَجِّحًا لبقاء اللغة العربية المُضَريّة من الشعر والكلام إلا قليلاً من الأمصار، فلما مَلَكَ التتر والمغول بالمشرق – ولم يكونوا على دين الإسلام – ذهب ذلك المرجِّح، وفسدت اللغة العربية على الإطلاق، ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم، وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلا يقع تعليمه صناعيًّا بالقوانين المتدارسة من كلام العرب وحفظ

---

[1] الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم ١/ ٣٢ – طبعة محققة، وقُوبلت على النسخة التي حققها الشيخ أحمد شاكر – تقديم د/ إحسان عباس – منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت.

كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك، وربما بقيت اللغةُ العربيةُ المُضَرِيَّةُ بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين طلبًا لها فانحفظت ببعض الشيء، وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له أثر ولا عين حتى إن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس).[1]

وأشار الإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) إلى تأثير اللغة في العقل والخُلُق والدِّين، وأهميتها في فهم القرآن والسنة فقال: (واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخُلُق والدِّين تأثيرًا قويًّا بيِّنًا ويؤثر- أيضًا- في مشابهةِ صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابَهَتُهُم تزيد العقل والدِّين والخُلُق، وأيضًا فإن نفْس اللغة العربية من الدِّين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يُفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).[2]

وحذّر ابنُ تيمية من إهمال اللغة العربية وعدّ ذلك من التشبُّه بالأعاجم فقال: (وأمّا اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي شعار الإسلام ولغة القرآن، حتى يصير ذلك عادة للمِصْرِ وأهله، ولأهل الدار، وللرجل مع صاحبه، ولأهل السوق، أو للأمراء، أو لأهل الديوان، أو لأهل الفقه فلا ريب أنّ هذا مكروه، فإنه من التشبه بالأعاجم وهو مكروه).[3]

وسار على الدرب كثيرٌ من علماء العربية، فنالهم العزُّ بالانتساب إلى العربية، ونالها العزُّ بالانتساب إليهم، وبسبب ذلك انتشرت اللغةُ العربيةُ في كثير من ربوع العالم (حتى أن روجر

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤١٩، ٤٢٠ – تعليق أبو مازن المصري، كمال سعيد فهمي – ط – المكتبة التوفيقية – مصر.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية ص ٢٠٧ - تحقيق : محمد حامد الفقي- الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ- الناشر - مطبعة السنة المحمدية – القاهرة.

(٣) السابق نفسه ص ٢٠٦.

بيكون، الذي يعتبر من أوائل الذين حملوا العلوم الإسلامية إلي الأجيال الأوربية التالية، كان يعجب ممن يريد أن يبحث في الفلسفة وهو لا يعرف اللغة العربية).[١]

ودار الزمان دورته، فوجدنا عَرَبًا يَخْجلون من لغتهم، ويَلْتمسون الفخر في الانتساب إلي غيرها، والحديثِ بلغة أجنبية، أو – على الأقل – إظهار المعرفة بغير العربية، حتى لو كانت تلك المعرفة لا تتعدّى كلماتٍ معدودةً، ويخجل أحدهم – ممن له علم بلغة أجنبية – من أدنى خطأ في تلك اللغة، في الوقت الذي لا يُقيم فيه جملةً عربيّةً، ولا يهتم بذلك، مع أنه (كان يُمكن لحاضر اللغة العربية أن يكون أكثر ازدهارًا من ماضيها، لو أن الأجيالَ العربيةَ الحاضرةَ أظهرتْ قَدْرًا من الاعتزاز بلغتها، والعنايةِ بِحُسْنِ استعمالها، ولكنَّ الأجيالَ الحاضرةَ حين فقدتْ فاعليتها الثقافيّةَ، وأصبحتْ عالةً على الغرب، لَمْ تَعُدْ تغار على تراثها الذي هو أوَّلُ مقوِّمات هويتها، وبخاصة فيما يتصل من هذا التراث بالجانب التطبيقي من الدين واللغة).[٢]

وبناء على ذلك فنحن مطالبون بالإيمان (بأننا أمة ينبغي أن تعتز بماضيها، إذا كانت تريد أن تعز في حاضرها، ونؤمن بأن الفصحى التي حملها العرب الأولون ليفتحوا بها أوطانًا، ويغزوا بها لغات ورطانات في الشرق وفي الغرب، هي – دون العاميات – الرباطُ الوحيدُ الذي يمكن أن يجمع العربَ في كل مكان).[٣]

واللغة العربية صالحة لمواكبة النهضات العلمية في كل العصور، بدليل أنها لم تجمد أمام التطور الحضاريّ الذي حدث في العصر العباسيّ، بل استوعبت ذلك التطور، وواكبت

---

[١] في التنوير العلمي، د. أحمد فؤاد باشا ص ٣٩، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م.

[٢] من قضايا اللغة العربية المعاصرة ص٢١.

[٣] العربية الفصحى، ص١٠ (من مقدمة المترجم).

التقدم العلميّ والحضاريّ، ولّما توجهت عناية العلماء – حينئذ – إلي ترجمة الكتب العلمية والفلسفية إلي اللغة العربية، لم تقف هذه اللغة أمامهم حجر عثرة، بل كانت مُعينًا لهم في تلبية رغبتهم، فاستوعبت علوم اليونان، ومنطق أرسطو، فكانت في أيديهم أداة طيِّعة، وما ذلك إلا لأنها لغة الوحي ولغة العلم والأدب، وأصبحت لغة العلوم الطبيعية، كالطبّ، والفلك، والكيمياء...الخ، مثلما هي لغة العلوم النظرية، كالفقه، والتفسير، والحديث، والكلام وغير ذلك، (ثمّ تمضي الأيام بهذه العربية، يتكلم بها الناس، ويسجلون بها خواطرهم ومشاعرهم، ويدونون بها علومهم ومعارفهم وألوان حضارتهم، ويداول الله الأيام بين الناس، فتتهاوى عروش، وتقوم عروش، وتسقط دول، وتنهض دول، وكان مما أراده ربُّك من كبوات هذه الأمة العربية ... ولكن لغتها بقيت حيث هي: موفورة لم تنتقص، عاليةً لم تَنْحَنِ، سليمة لم تنكسر).[1]

فمن الواجب علينا أن نعتزّ بها ونفخر، لنصنع لأنفسنا مكانًا ومكانة على الساحة العالمية، فلا نذوب ولا نتقوقع، ولا نفقد هويتنا.

٣- عناية العرب – منذ العصر الجاهلي – بالشِّعر العربي نَظْمًا ورِوايةً وتدوينًا:

كان للعرب في جاهليتهم اهتمامٌ بالغٌ بالشِّعْر، فقد كان الشِّعْرُ شغلهم الشاغل، به يعبرون عن آمالهم وآلامهم، ينظمونه في حروبهم ليحمل فرسانهم على البذل والتضحية، وينظمونه في سِلْمهم ليسجلوا به مفاخرهم وبطولاتهم، لذا وصفه سيدنا عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – بقوله: (الشِّعْرُ دِيوَانُ الْعَرَبِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْنَا الْحَرْفُ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ رَجَعْنَا إِلَى دِيوَانِهَا فَالْتَمَسْنَا مَعْرِفَةَ ذَلِكَ مِنْهُ).[2]

---

[1] في اللغة والأدب – دراسات وبحوث د/ محمود محمد الطناحي ٢/ ٧٤٧، ٧٤٨ – ط – الأولى ٢٠٠٢م – دار الغرب الإسلامي.

[2] الإتقان ٢/ ٥٥، و ينظر: المزهر٢/ ٣٠٢.

ومما يوضح منزلة الشعر عند العرب قولُ ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ): (كانت القبيلةُ من العرب إذا نبغ فيها شاعرٌ أتَتْ القبائلُ فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حمايةٌ لأعراضهم، وذَبٌّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادةٌ بذِكْرِهم. وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج).[١]

ويشير إلى أثر الشِّعْر في إعلاء منزلةِ قَوْمٍ والحَطّ من شأن آخرين فيقول: (الشِّعْر – لجلالته – يرفع من قَدْر الخامل إذا مُدح به، مثل ما يضع من قَدْر الشريف إذا اتخذه مَكْسَبًا).[٢]

ثم يضرب الأمثلة على ذلك فيقول: (وَمِنْ هَهُنا عَظُمَ الشِّعرُ، وتُهُيِّبَ أهلُه، خوفًا من بيتٍ سائرٍ تُحْدَى به الإبلُ، أو لفظةٍ شاردةٍ يُضْرب بها المثلُ، ورجاء في مثل ذلك؛ فقد رَفَعَ كثيرًا من الناس ما قيل فيهم من الشعر بعد الخمول والاطراح، حتى افتخروا بما كانوا يُعَيَّرون به، ووَضَعَ جماعةً من أهل السوابق والأقدار الشريفة حتى عُيِّرُوا بما كانوا يفتخرون به.

فممن رفعه ما قيل فيه من الشعر بعد الخمول: المُحَلَّق، وذلك أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به، وكانت للمُحَلَّق امرأة عاقلة – وقيل: بل أم – فقالت له: إن الأعشى قدم، وهو رجل مُفَوَّهٌ، مَجْدُودٌ في الشِّعْر ما مدح أحدًا إلا رفعه، ولا هجا أحدًا إلا وضعه، وأنت رجلٌ – كما علمتَ– فقيرٌ خاملُ الذِّكْرِ ذو بنات، وعندنا لَقْحَةٌ نعيش بها، فلو سَبَقْتَ الناسَ إليه فَدَعَوْتَهُ إلى الضيافة، ونَحَرْتَ له، واحْتَلْتُ لك فيما تشتري به شرابًا يتعاطاه؛ لَرَجَوْتُ لك حُسْنَ العاقبة، فَسَبق إليه المُحَلَّق، فأنزله ونَحَرَ له، ووجد المرأة قد خبزتْ خبزًا وأخرجت نِحْيًا فيه سَمْنٌ وجاءت بوَطْب لبن، فلما أكل الأعشى وأصحابُهُ، وكان في عصابة قَيْسِيَّة، قدّم

---

[١] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني ١/ ٦٥، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، ١٤٠١هـ ١٩٨١م ، دار الجيل، بيروت – لبنان.

[٢] العمدة ١/ ٤٠.

إليه الشراب واشتوى له من كبد الناقة، وأطعمه من أطايبها، فلما جرى فيه الشرابُ وأخذت منه الكأسُ سأله عن حاله وعياله فَعَرَفَ البؤسَ في كلامه، وذكر البنات، فقال الأعشى: كُفِيتَ أمرهن، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أَرِقْتُ وَمَا هَذَا السُّهَادُ الْمُؤَرِّقُ

وَمَا بِيَ مِنْ سُقْمٍ وَمَا بِيَ مَعْشَقُ

ورأى الْمُحَلَّقُ اجتماعَ الناسِ، فوقف يستمع، وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله، إلى أن سمع:

نَفَى الذَّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةٌ

كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقِيِّ تَفْهَقُ

تَرَى القَوْمَ فِيهَا شَارِعِينَ وَبَيْنَهُمْ

مَعَ القَوْمِ وِلْدَانٌ مِنَ النَّسْلِ دَرْدَقُ

لَعَمْرِي، لَقَدْ لاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ

إلى ضَوْءِ نَارٍ باليَفَاعِ تُحَرَّقُ

تُشَبُّ لِقَرْورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا

وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ

رَضِـــــيعَيْ لِبَـــــانٍ ثَـــــدْيَ أُمٍّ تَحَالَفَـــــا

بِأَسْـــــحَمَ دَاجٍ عَـــــوْضُ لا نَتَفَـــــرَّقُ

تَـــرَى الجُـــودَ يَجْـــرِي ظَـــاهِرًا فَـــوْقَ وَجْهِـــهِ

كَـــــمَا زَانَ مَـــــتْنَ الهِنْـــــدُوَانِيِّ رَوْنَـــــقُ

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المُحَلَّق يهنئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جريًا يخطبون بناته؛ لمكان شعر الأعشى، فلمْ تُمْسِ منهنّ واحدةٌ إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضِعْفٍ).[1]

وإذا كان الشِّعر سببًا في رَفْعْ قَدْرِ أناسٍ، فقد كان سببًا في وّضْعِ آخرين، والحَطِّ مِنْ شأْنهم، يقول ابن رشيق: (وممن وضعه ما قيل فيه من الشعر حتى انكسر نسبه، وسقط عن رتبته، وعيب بفضيلته: بنو نُمَيْر، وكانوا جَمْرَة من جَمَرَات العرب، إذا سئل أحدهم: ممن الرجل؟ فَخَّمَ لَفْظَهُ وَمَدَّ صَوْتَهُ وقال: من بني نمير، إلى أن صنع جرير قصيدته التي هَجَا بها عُبَيْدَ بْنَ حُصَيْن الراعي، فسهر لها، وطالت ليلته إلى أن قال:

فَغُـــضَّ الطَّـــرْفَ إِنَّـــكَ مِـــنْ نُمَـــيْرٍ

فَـــــلا كَعْبًـــــا بَلَغْـــــتَ وَلا كِلابَـــــا

[1] العمدة ١/ ٤٨، ٤٩. وينظر شعر الأعشى (مع تقديم وتأخير في الأبيات): ديوان الأعشى الكبير ٢/ ٦٢، ٧٤ : ٧٨، تحقيق: د. محمود إبراهيم الرضواني، ط١، ٢٠١٠م، الناشر وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر.

فأطفأ سراجه ونام وقال: قد والله أخزيتهم آخِرَ الدَّهْرِ، فلمْ يَرْفعوا رأسًا بعدها إلا نكس بهذا البيت).[1]

وقد ساعدت هذه المنزلةُ التي حظي بها الشِّعْر عند العرب في أن يتبوأ الشعراءُ منزلةً عاليةً، ومكانةً مرموقةً، فصاروا صفوةَ المجتمعِ العربي، يُسمع قَوْلُهُم، ويُرْهب جانِبُهُم، وصار الشِّعْرُ نفسه حُجَّةً في العربية، ومن أهم مصادر البحث في اللغة، يذكر أبو حاتم الرازي (ت٣٢٢هـ) أن العلماء العرب قَيَّدُوا بالشِّعر: (المعاني الغريبة، والألفاظ الشاردة؛ فإذا أُحوجوا إلى معرفة معنى حرف مُسْتَصْعَبٍ، ولفظ نادرٍ، التمسوه في الشِّعْر الذي هو ديوانٌ لهم، مُتَّفَقٌ عليه، مَرْضِيٌّ بحُكْمه، مُجْتَمَعٌ على صحة معانيه وإحكام أصوله، مُحْتَجٌّ به على ما اخْتُلِف فيه من معاني الألفاظ وأصول اللغة).[2]

ومن هنا نفهم سِرَّ العناية الكبيرة التي حازها الشعر العربي نظمًا ورواية وتدوينًا، وهذه العناية الفائقة التي حظي بها الشِّعْر كان لها الأثر الكبير في الحفاظ على اللغة العربية وبقائها، رغم ما واجهته من مِحَنٍ ومكائدَ، ولا يخفى أثر ذلك كله في وِحْدَة الأمة.

٤- جهود علماء العربية في سبيل الحفاظ عليها:

بذل علماء العربية جهودًا مشكورةً في سبيل الحفاظ على لغة العرب، وبذلوا النَّفْسَ والنَّفِيسَ في سبيل تحقيق هذه الغاية، ولم يَدّخروا وُسْعًا، فكانوا - رحمهم الله تعالى ورضي عنهم - الأمناءَ على هذه اللغة الشريفة التي ملأتْ عليهم قلوبهم وعقولهم، وقد بلغ من اعتزاز سلفنا الصالح باللغة العربية، والحرص عليها، أنهم ضَحَّوْا براحتهم من أجلها،

---

(١) العمدة ١/ ٥٠، وينظر قول جرير في: ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٣/ ٨٢١ ، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، ط٣، دار المعارف - القاهرة.

(٢) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، لأبي حاتم الرازي، تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني، ١/ ٨٣، دار الكتاب العربي ١٩٥٧م.

وقطعوا المسافات الطويلة واغتربوا، وتركوا الأهل والديار لجمع مفرداتها، فلقد بذلوا كثيرًا من جهودهم وأوقاتهم، من أجل الحفاظ على لغة القرآن الكريم، فلما انتشر اللحن على الألسنة نزلوا البوادي، وشافهوا الأعراب، وحفظوا عنهم ما سمعوه، كما أضافوا إلى الحفظ التدوينَ، وكان ذلك حرصًا على سلامة اللغة العربية، ودفْع ما عساه أنْ يَشِينها، فالكسائي (ت ١٨٩هـ) – مثلاً – سأل الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) قائلا: من أين أخذتَ علمك هذا؟ قال له: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج الكسائي إلى البادية، ثم رجع بعد أن أنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة سوى ما حفظ.(١)

وهذه الرواية تشير إلى كثرة ما رواه العلماء عن العرب ونقلوه عنهم، ومن هذا كله تكونت الرسائل اللغوية والمعاجم، يقول الأستاذ أحمد أمين: (وكان المدونون الأولون للغة في هذا العصر، يدونون المفردات حيثما اتفق، وكما يتيسر لهم سماعها، فقد يسمعون كلمة في الفرس، وأخرى في الغيث، وثالثة في الرجل القصير، وهكذا، فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب، وكانت الخطوة الثانية، أن جمعوا الكلمات الخاصة بموضوع واحد، وأظهر ما كان ذلك في كتب الأصمعي، فله كتاب الأنواء، وكتاب الميسر والقداح، وكتاب خَلق الفرس، وكتاب الإبل، وكتاب الشاء ، وهكذا، يجمع ما ورد من الألفاظ اللغوية في موضع واحد، ويسميه كتابًا، وقد يكون الكتاب بضع ورقات، ثم كانت الخطوة الثالثة عمل المعاجم).(٢)

وهذه الخطوات الثلاث التي أشار إليها الأستاذ أحمد أمين، لم تكن خطوات منفصلة بعضها عن بعض، وأن الخطوة الثانية لم تبدأ إلا بعد الانتهاء من الأولى، والثالثة لم تبدأ إلا بعد الانتهاء من الثانية، ولكن هذه الخطوات الثلاث كانت متداخلة، فالخليل بن أحمد صاحب

(١) ينظر: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، للخطيب البغدادي ١١/ ٤٠٤ – ط – دار الكتاب العربي – بيروت.

(٢) ضحى الإسلام ١/ ٣٢٠.

أول معجم لغوى، توفي سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة، بينما توفي الأصمعي مثلاً سنة خمس عشرة، وقيل: ست عشرة ومائتين للهجرة.

وتوالى بعد ذلك التأليف والتدوين، وكان العلماء يعمدون إلى تأييد معاني الألفاظ بما ورد منها في القرآن الكريم، والحديث الشريف، وشعر العرب ونثرهم.

ولما كان الحفاظ على لغة القرآن، والسنة النبوية هدفًا، وضعه العلماء نُصب أعينهم، وبذلوا جهودًا عظيمة في سبيل تحقيقه، رأينا كثيرًا من الكتب التي أُلّفت تحمل اسم غريب القرآن، أو غريب الحديث.

والمهم أنّ ذلك كله كان من عوامل الحفاظ على لغة العرب وبقائها سليمة نقية، مما جعلها من أهم العوامل التي تعمل عملها في وِحْدَة الأمة العربية خصوصًا والأمة الإسلامية عمومًا.

المبحث الرابع:
أهم وسائل نشر الفصحى لعصمة الأمة من التفكك

ينبغي على العرب العملُ على نشر اللغة العربية كي تؤدي دورها في العمل على وِحْدَة الأمة وتماسكها وعصمتها من التفكك والذوبان في الآخر، وتوجد بعض العوامل التي تساعد في تحقيق هذا الهدف، منها:

١ – الاهتمام باللغة العربية في وسائل الإعلام:

يحظى الإعلام – بوسائله المختلفة – بمكانة مرموقة، فقد أحدث تغييرًا كبيرًا في كل مجالات الحياة المعاصرة، وسلوكيات أفراد المجتمع، وأصبحت له أهمية كبيرة في تشكيل العقول، وتوجيه الناس نحو رأي معيّن وإقناعهم به، أو إبعادهم عن شيء وتنفيرهم منه.

ولما كان الإعلام من ضرورات الحياة المعاصرة، فإن الدول جميعًا تستخدمه في توجيه العقول نحو أهدافها، وتتبع من السياسات الإعلامية ما يمكن أن يحقق لها ما تصبو إليه، وذلك لما له من قوة تأثير في الناس جميعهم، لا فرق بين مثقف وأميّ.

ووسائل الإعلام المختلفة يمكن أن تؤدي دورًا فاعلاً في العمل على النهوض باللغة العربية، وترغيب المجتمع العربيّ في الاستمساك بها وإعزازها، وذلك عن طريق الالتزام بها نطقًا وكتابة، وعدم الغضّ من شأنها.

ويمتلك الإعلام المرئيّ – على وجه الخصوص – قدرة كبيرة على الحفاظ على الهوية اللغوية، لما له من جمهور كبير، فقد تعددت القنوات العربية فضائيةً كانت أو أرضيةً، وكان يمكن لهذه القنوات أن تعمل على رفع شأن اللغة العربية، إذا التزمت بها في المادة الإعلامية التي تقدمها، وفي نوعية البرامج التي تنتجها، لكننا للأسف نجد عكس ذلك تمامًا؛ إذ تسيطر العاميات على كل ما يُقدم، بل يتخلل الحديثَ – في كثير من الأحيان – ألفاظٌ أجنبيةٌ، مما يُشعر المرءَ بأن هذه القنوات قد أسقطت من سياستها الإعلامية اللغةَ العربيةَ.

ومن هنا تأتي أهمية دور وزارات الإعلام في العالم العربي، التي يجب أن تُعْنَى باللغة العربية في وسائل الإعلام المختلفة، خصوصًا المرئية، فتضع من السياسات الإعلامية ما يحقق للعربية ازدهارًا، ومن ثَمَّ للأمة العربية أهمّ مقوّمات وحدتها.

فاللغة التي تُستعمل في الإعلام سرعان ما تنتشر وتذيع بين الأفراد، ومن هنا تأتي ضرورة العمل الجدِّيّ في دعم اللغة العربية والنهوض بها، ووضعها في مكانها الصحيح الذي يليق بها، وغرس حُبِّها في قلوب أبنائها، وحب الانتماء إليها، والاعتزاز بها، بدلاً من الخجل من النطق بها.

٢- شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ودورها في نشر اللغة العربية:

حازت شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، أهمية كبيرة في عصرنا هذا؛ لسهولة استخدامها، وسرعتها الفائقة في نقل الرسائل والمعلومات، فيسَّرَتْ بذلك الاتصال بين الإنسان وأخيه الإنسان في شتى بقاع العالم، كما يسّرت الاتصال بين الفرد والمؤسسات الحكومية والأهلية، وأصبحت ملتقًى للبشرية جمعاء.

لذا كَثُرت المواقعُ العربيةُ على هذه الشبكة، وهذا في حدّ ذاته شيء محمود، فكثير من هذه المواقع يلتزم الفصحى، وفي ذلك بيان للوجه المشرق لهذه اللغة، وقدرتها على مواكبة العصر، والتعبير عن الأغراض المختلفة.

ومما ينبغي التَّنَبُّهُ إليه بشأن هذه الشبكة، ما يعرف بمواقع التواصل الاجتماعي، وكثير من المتخصصين في اللغة العربية لهم صفحات على هذه المواقع، ولو التزم هؤلاء الفصحى في كتاباتهم وتعليقاتهم لأدَّوْا بذلك خدمة جليلة للغتهم، ولأصبحوا بذلك قدوة لغيرهم، ومثلاً يُحْتذى، وهذا هو المأمول من أمثالهم.

ومن هنا يتضح لنا أن شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) يمكن أن تُسْدي أجَلَّ الخِدْمات للغة العربية، إذا أحْسَنّا – نحن العرب – استخدامها، وجعلناها وسيلةَ نَشْرٍ لهذه

اللغة، وبهذا تكون هذه الشبكةُ عاملاً مُهِمًّا من عوامل الحفاظ على اللغة العربية وانتشارها، لتؤدي اللغة بعد ذلك دورها في وِحْدَة الأمة.

٣- مؤسسات التعليم ودورها في نشر الفصحى:

التعليم في كل أمّة هو الوسيلة الأنجع في بناء أفرادها، وكلما زادت العناية به كلما كان ذلك دليلاً على حرص أولى الأمر فيها على التقدم والرقيّ، واللحاق بركب الحضارة، وتربية جيل يعتز بأمته وتاريخه، ويفخر بالانتساب لحضارته.

واللغة القومية لكل أمّة هي التي تعمل على تربية الأجيال على حُبّ وطنهم والانتماء إليه؛ لأنها الأقدر على توصيل المفاهيم إليهم؛ لذا تعمد جميع الأمم إلى جعل لغتها القومية لغة التعليم لديها، يدرسون بها الآداب والعلوم المختلفة.

وإذا نظرنا إلي أمتنا العربية سنجد أن هذا الأمرَ يختلف في بعض جوانبه، عمّا هو عليه عند الأمم الأخرى، فمع أنّ اللغةَ العربيةَ هي اللغةُ الرسميةُ في البلاد العربية، والمفترض أنها لغة التعليم فيها، إلا أننا نجد إهمالاً كبيرًا في حقّها، فالتعليم في البلاد العربية (لا تعكس استراتيجياتُهُ ومناهجُهُ وسلوكُ مدرِّسيه وأداءُ طلبته ما للغة الأمّ من أهميةٍ في أمور التعليم والتربية، وينحصر جهد الإصلاح التربوي – عادة – على مناهج تدريس اللغة العربية، دون مراعاة لعلاقتها بتدريس المواد الأخرى، ويا لَيْتَ هذا الجهدَ قد حقق الحدّ الأدنى من النجاح، فهو لم يثمر – في الواقع – إلا مزيدًا من عزوف الطلاب عن مداومة تعلّم لغتهم الأم، وتذوّق مآثرها).[١]

ومما يؤسف له في هذا الصدد أننا نجد العامية تزاحم (الفصحى في معقلٍ من أهم معاقلها، إذ إنها تزاحمها وتحاصرها في قاعات الدرس، داخل المدرسة والجامعة، فنجد تدريس

---

[١] الثقافة العربية وعصر المعلومات د/ نبيل علي ص ٢٣٧.

العلوم المختلفة ومنها : اللغة العربية، يتم بالعامية، وهذا يحمل في طياته اتهامًا للفصحى بعدم صلاحيتها للتدريس، بل لتدريس الفصحى، شعرًا ونثرًا وقواعد، وإن هذا لمن أشد الأمور خطرًا على هذه اللغة؛ إذْ تُهَان على يد مَنْ يُفترض فيهم إعلاءُ شأنها، وإعادةُ مجدها، والذوْدُ عن حِياضها).[1]

وفي التعليم الجامعي خصوصًا نجد إهمالاً تامًّا للغة العربية في بعض الكليات، مثل: الطب، والصيدلة، والعلوم، والهندسة، حيث يتم تدريس العلوم باللغات الأجنبية، فكل دولة تتخذ لغة أجنبية معينة للتدريس في هذه الكليات، عدا سوريا فقد عرَّبت التعليم الجامعي منذ فترة.

وإهمال التدريس باللغة العربية في التعليم الجامعي له آثار وخيمة، منها أنه يؤدى إلي: التبعية الثقافية، وجمود اللغة وعزلها عن العلم والتطوير، والشعور بعدم جدوى اللغة العربية عمومًا، وفي تدريس العلوم الطبيعية خصوصًا، والحدّ من قدرة الطلاب واستيعابهم، وقد عرضنا ذلك كله بالتفصيل في مكان آخر.[2]

ويتعلل الرافضون تدريس العلوم الطبيعية باللغة العربية، بالقول بأنها غير قادرة على مواكبة علوم العصر، ونقول: إن معظم هؤلاء ممن ابتعدوا عن بلادهم العربية (ردحًا من الزمن للدراسة وهم ما زالوا في غضارة الشباب، تبهرهم حضارة البلاد التي يزورونها، ويتعلمون لغاتها، ويأخذون من علومها، في حين لم تكن قد تهيأت لهم قبل ذلك فرصة إتقان العربية وممارستها في العمل العلمي المتخصص، وإذا بهم يعتقدون بقصور العربية عن مجاراة

---

[1] اللغة العربية في العصر الحاضر – مشكلات وحلول د/ محمد موسى السعيد ص٣٩٧ – بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد ٢٤ – سنة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

[2] ينظر: السابق نفسه ص ٤٣٣، ٤٣٤.

العلوم).[1]

فهل يفرز مثل هذا المناخ أُناسًا يحبون لغتهم ويدافعون عنها؟! إن اللغة العربية في أَمَسّ الحاجة إلي أناس يفخرون بالانتساب إليها، فقد أثبتت (جدارتها على مرّ العصور، وحقّها في أن تصبح لغة عالمية، وشهد تاريخ الفتح الإسلامي على سرعة انتشارها واندماجها في بيئات لغوية متباينة، لقد نجحت العربية في عصور الازدهار أن تكون أداة فعّالة لنقل المعرفة، حتى قال القائل: عجبت لمن يدّعي العلم، ويجهل العربية) [2]، كما أنها في أَمَسّ الحاجة إلي أناس يثقون في قدرتها على مجاراة علوم العصر؛ لأن (استرداد ثقة الإنسان العربيّ في لغته هي نقطة البداية في استرداد ثقته في ذاته ومؤسساته).[3]

ونشير – هنا – إلي قول أحد الباحثين: (كانت مؤلفات الأطباء العرب وتجاربهم جُسُورًا عَبَرَ عليها الطّبُّ الإغريقيّ إلي أوروبا، مصبوغًا بالصبغة العربية التي أضافت إليه واستدركت عليه، وقد اعترف بهذا مؤرخو العلوم من المستشرقين وغيرهم).[4]

---

[1] من قضايا اللغة العربية المعاصرة ص١٣١.

[2] تحديات عصر المعلومات، د. نبيل علي ص٤٦، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م.

[3] السابق نفسه ص٥٢.

[4] مدخل إلي تاريخ نشر التراث العربي ص١٦، وفيه نقول كثيرة عن بعض علماء أوروبا الذين اعترفوا بجهود العرب في ميدان العلوم الطبيعية.

المبحث الخامس:
دور اللغة العربية في وِحدَة الأمة، وبناء الحضارة العربية الإسلامية

تعتمد الأمة في تحقيق وحدتها على عدد من العوامل، من أهمها:

- العامل الطبيعي، الذي يعني اتصال المنطقة الجغرافية بعضها ببعض دون حواجز طبيعية.

- العامل الديني، الذي يعمل على جمع كلمة أبناء الأمة، فديانتهم واحدة، وشعائرهم واحدة، ومعتقدهم واحد.

- ثم يأتي دور اللغة، تلك التي تعمل على أن يكون تفكيرُ أبناءِ الأمةِ الناطقةِ بها واحدًا، ويمكن أن تؤدي اللغة العربية دورها في هذه الوِحْدَة المنشودة من خلال ما تتمتع به من مميزات وخصائص تُمَكّنها من القيام بالدور المنوط بها، وفي السطور التالية أستطيع الإشارة إلى بعض هذه المميزات، والتي منها:

١- أنها كانت الوعاء الذي استوعب الفكر الإسلامي في مختلف فروع المعرفة الإنسانية،

كانت اللغة العربية قبل الإسلام تعبر عن حاجات أهلها، لكن هذه الحاجات كثرتْ بَعْدَ مجيء الإسلام، واتسع نطاقها، حيث (نشأتْ وارتقتْ سريعًا حضارةٌ جديدةٌ، ومدنيّةٌ حديثةٌ، تقوم على العِلْم، وترتكز على الثقافة، ولا تترك أيّ مظهر من مظاهر الرقيّ إلا أخذت منه بنصيب، وأسهمت فيه بقدر كبير).[1]

ويُلاحظ أنّ اللغة العربية لم تَجْمُدْ أمام هذا التطور الحضاري الكبير الذي عرفه العرب بعد الإسلام، فقد استطاعت اللغةُ العربيةُ استيعابَ ذلك التطور، فما تركت شيئًا من مظاهر الحضارة الجديدة إلا وَعَبَّرَتْ عنه، وكيف لا؟! وقد استوعبت القرآن الكريم، بما اشتمل عليه

---

[1] في فقه اللغة، د. عبد العزيز علام، د. عبد الله ربيع ص١٤٧، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

من الحكمة والموعظة الحسنة، والتشريع الفَذّ، وقصص الأوّلين، من الأنبياء والمرسلين والصالحين، وأنباء الغابرين من الأفراد والأمم، وغير ذلك.

وإذا كانت العرب وحَّدَتْ لهجتها - قبل الإسلام - فيما تركته لنا من الشعر، فإن نزول القرآن الكريم بهذه اللهجة المُوَحَّدَة كان إيذانًا ببقائها واستمرارها، ووجوب الحفاظ عليها، كما كان إشارةً إلى أنّها من أهم عوامل وِحْدَة الأمة.

٢- استيعاب اللغة ما استجد من مصطلحات منذ مجيء الإسلام:

مما لاشكّ فيه أن هذه النهضة الحضارية الكبرى التي شهدها العرب بعد مجيء الإسلام صاحبتها نهضة لغوية، فقد واكبت اللغة العربية مستجدات العصر، وَعَبَّرَتْ عمّا شاع فيه وانتشر، سواء في ميدان العقيدة، أو العبادة، أو الثقافة، أو السياسة، أو الاقتصاد ..الخ.

فقد انتقلت ألفاظٌ من معانيها القديمة إلى معانٍ جديدة، وهذا ما يُعرف بالتوسع في دلالة الألفاظ، ومن الأمثلة على ذلك:[١]

في الجانب العَقَدِيّ برزتْ ألفاظٌ، منها: المسلم، والكافر، والمنافق..الخ.

وفي جانب العبادات وجدنا كثيرًا من الألفاظ، مثل: الصلاة، والصيام، والحجّ..الخ.

وفي ميدان الثقافة كثرت المصطلحات الجديدة، من ذلك: الفاعل والمفعول، والمرسل والمنقطع، والتفسير والتأويل، والكناية والاستعارة..الخ.

وفي الناحية السياسية نشأت مصطلحات عديدة، منها: الخلافة، والوزارة، وولاية العهد..الخ.

وفي ميدان الاقتصاد ظهرت مصطلحات للتعبير عن هذا الجانب، منها: الزكاة، والأنفال.

ولم يقف الأمر عند حَدّ التوسع في دلالة الألفاظ، بل تعدّاه إلى استحداث ألفاظ جديدة لم

---

[١] ينظر: فقه اللغة العربية، د. إبراهيم نجا ٢/ ١٠١، دار الحديث بالقاهرة، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، في فقه اللغة، د. عبد العزيز علام، د. عبد الله ربيع، ص١٥٠ وما بعدها.

يكن للعرب عَهْدٌ بها من قبل، من ذلك:

لفظ (الزَّمَّارة) الوارد فيما رواه أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (نَهَى عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ، وَكَسْبِ الزَّمَّارَةِ).[1]

وفَسَّرَ أبو عبيد والبغويُّ الزَّمَّارّةَ بأنها: الزَّانِيَةُ، وقال أبو عبيد: (وَلم أسمع هَذَا الْحَرْف إِلَّا فِيهِ [أي: في الحديث] وَلا أدْري مِنْ أَيّ شَيْءٍ أُخِذَ).[2]

ويذكر أبو عبيد في موطن آخر من كتابه عددًا آخر من الألفاظ بجوار اللفظ السابق فيقول: (فِي حَدِيث النَّبِي عَلَيْهِ السَّلَام: " مَاذَا فِي الْأَمَرَّيْنِ مِنَ الشِّفَاءِ؟ الصَّبْرُ[3] والثُّفَّاءُ "، مَمْدُود.

يُقَال: إِنّ الثُّفَّاءَ هُوَ الحُرْفُ[4]، والتَّفْسِير هُوَ في هذا الحديث، ولم أسمعه في غير هذا الموضع، وقد رُوِيَتْ أشياءُ في مثل هذا لم نسمعها في أشعارهم ولا في كلامهم، إِلَّا أن التَّفْسِير

---

[1] شرح السنة، للبغوي ٨/ ٢٢، ٢٣، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، ط٢، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت. وينظر: مسند إسحاق بن راهويه ١/ ١٨٨، تحقيق: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، الناشر: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة.

[2] غريب الحديث، لأبي عبيد ١/ ٣٤١ تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، ط١، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، وشرح السنة، للبغوي ٨/ ٢٣. وما بين المعقوفين زيادة للإيضاح.

[3] قال ابن الأثير: (الصَّبِرُ: هُوَ الدَّوَاءُ المُرُّ المَعْرُوفُ). النهاية ٤/ ٣١٧ (م ر ر).

[4] قال ابن الأثير: (الثُّفَّاء: الْخَرْدَل. وَقِيلَ الْحُرْفُ، ويُسَمّيه أَهْلُ الْعِرَاقِ حَبَّ الرَّشاد، الْوَاحِدَةُ ثُفَّاءَة. وجعَلَه مُرًّا للحُرُوفة الَّتِي فِيهِ ولَذْعِه لِلِّسَانِ). النهاية ١/ ٢١٤ (ث ف أ). وقال أيضًا: (وَإِنَّمَا قَالَ: " الأَمَرَّيْنِ "، والمُرُّ أحدُهما؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ الحُروفَة والحِدّة الَّتِي فِي الخَرْدَل بِمَنْزِلَةِ المَرارة. وَقَدْ يُغَلِّبون أحدَ القَرينَين عَلَى الْآخَرِ، فَيَذْكُرُونَهُمَا بلفظٍ واحدٍ). النهاية ٤/ ٣١٧ (م ر ر).

في الحديث. مِنْهُ قَوْله: " إِنَّه نَهَى عَنْ كَسْبِ الزَّمَّارة "، وَتَفْسِيرُ الحديث: الزَّانِيَةُ. وَمِنْه: حديث سالم بْن عَبْد اللهَّ " أَنه مَرَّ بِهِ رَجُلٌ مَعَهُ صِيرٌ فَذَاقَ مِنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ: كَيفَ يَبِيعهُ "، تَفْسِيره فِي الحَدِيث: أَنه الصَّحْنَاةُ، وَكَذَلِكَ حَدِيثه الآخر: " مَنِ اطَّلَعَ مِنْ صِيرِ بَابٍ فَفُقِئَتْ عَيْنُهُ فَهِيَ هَدَرٌ "، فتفسيره في الحديث أَنَّ الصِّيرَ: هُو الشَّقُّ في البَاب. ومن ذلك حديث عُمَر – رَضِيَ الله عَنْهُ – حين سَأَلَ المَفْقُودَ الذي كان الجِنّ استهوته: " مَا كَانَ شَرَابُهُمْ؟" فَقَالَ: " الجَدَفُ "، وَتَفْسِيره فِي الحَدِيث: أَنه مَا لا يُغَطَّى. وَيُقَال: إِنَّه نَبَاتٌ يكون باليمن، لَا يحتاج الذي يَأْكُلهُ إلى أن يشرب عَلَيْهِ المَاءَ).[1]

ومَرَّةً أُخْرَى يفسر أبو عبيد الجَدَفَ بتفسيره السابق، ولكنه يضيف فائدة مهمة فيقول: (تَفْسِير الجَدَف لم أسمعهُ إِلَّا فِي هَذَا الحَدِيث، وَمَا جَاءَ إِلَّا وَلَهُ أَصْلٌ، ولكن ذَهَبَ مَنْ كان يَعْرِفُهُ وَيَتَكَلَّم بِهِ).[2]

ولا يَخْفَى أنّ هذا الاستيعاب الذي اتصفت به اللغة العربية كان له الأثر الكبير في العمل على توحيد الأمة، حيث ينطق أبناؤها مصطلحات واحدةً، سواء في ميدان العقيدة أو العبادة أو التشريع أو الاقتصاد أو السياسة..الخ، وبذلك كانت اللغة عاملاً مهمًّا من عوامل وِحْدَة الأمة وتماسكها، وتوحيد فكرها وثقافتها.

ولا شك في أنّ اللغة التي فعلت ذلك قديمًا قادرةٌ على فِعْله حديثًا، لكنها في حاجة شديدة – كي تحقق ذلك – إلى العمل الجاد من أبنائها،

شريطة أن يقوم أبناؤها بما يجب عليهم نحوها، من الاعتزاز بها، والعمل على ارتفاع

---

[1] غريب الحديث، لأبي عبيد ٢/ ٤٠ : ٤٣.

[2] غريب الحديث، لأبي عبيد ٣/ ٣٨١.

شأنها، والذود عن حياضها، وألا تنطق ألسنتهم بغيرها إلا للضرورة القصوى[1]، حفاظًا عليها، ومراعاة لحقها عليهم.

٣- قدرة اللغة العربية على استيعاب المفردات الأجنبية اللازمة للتعبير عن مستجدات العصر (التعريب):

اللغة كالكائن الحيّ، تحيا ألفاظٌ وتموت أخرى، وتُسْتَجدّ علوم وفنون تحتاج إلي التعبير عنها، وتزداد الحاجة إلي المصطلحات اللغوية كلّما تطور الشأن الحضاريّ للأمم.

ولغتنا العربية – شأنها شأن غيرها من اللغات – في تفاعل مُسْتمرّ، تأخذ من غيرها وتُعْطِي؛ ولكن بسبب ما يشهده العالم العربيّ – حاليًا – من تأخّر في الجانب الماديّ من الحضارة، نجد أنّ أَخْذَ اللغة العربية من غيرها هو الحال المسيطر عليها، وذلك للتعبير عن مستجدات الحضارة، وعلوم العصر، التي يقف العرب أمامها موقف الناقل لا المبدع.

والتعريب وإن اشتدت الحاجة إليه في عصرنا هذا؛ بسبب الوضع العربيّ الراهن، فليس معنى ذلك أنه أَمْرٌ طارئ على اللغة العربية، بل عرفته العربية من قديم الزمن، فالعرب لم يكونوا أمة منعزلة عن بقية الأمم المجاورة لهم، وإنما كانوا يختلطون بغيرهم من أبناء الأمم الأخرى، فدخلت في لغتهم ألفاظٌ من لغات الأمم المجاورة، وعندما جاء الإسلام بذل المسلمون قصارى جهدهم من أجل نشره بين أمم الأرض، ففتح الله – عز وجل – على أيديهم بلاد فارس والروم، كما فُتحتْ مصر والعراق وبلاد الشام، وغير ذلك من البلاد التي لم تكن – قبل ذلك – تتحدث باللغة العربية، ولَمَّا دخل الإسلامُ هذه البلادَ المفتوحة بَذَلَ أهلها جهدهم في تعلُّم اللغة العربية لغة القرآن الكريم؛ وبسبب ذلك دخلت ألفاظٌ من لغات

---

[1] لا أقصد الامتناع عن تعلُّم اللغات الأجنبية، فتعلمها شيء محمود، لكني أقصد: الاقتصار على استعمال اللغة العربية عندما لا يتطلب المقام غيرها، حيث نجد أناسًا يَحْلُو لهم الحديثُ – للأسف – بغير اللغة العربية.

أهل هذه البلاد في اللغة العربية، ونطق بها العرب، وأصبحت جزءًا من لغتهم، بعد أن عرَّبوها وهذَّبوها، ولم يقل أحد – فيما أعلم – بأن ذلك من شأنه إضعاف اللغة العربية، أو الانتقاص من دورها في وِحْدَة الأمّة، بل إنّ أحد الباحثين ذهب إلي أن هذا التقبُّلَ للمعرّب يُعدّ خصيصة من خصائص العربية؛ حيث يرى أنّ (مقدرة لغةٍ ما على تَمَثُّل الكلام الأجنبيّ تعدّ مزية وخصيصة لها إذا هي صاغته على أوزانها، وأنزلته على أحكامها، وجعلته جزءًا لا يتجزأ من عناصر التعبير فيها).[1]

لكنّا نشير– هنا – إلي ما ذهب إليه العلماء من ضرورة محاولة صياغة المصطلح أوّلاً عن طريق الاشتقاق، أو المجاز، أو النحت، أو التركيب [2]، فإذا لم نوفَّق – من خلال هذه الطرق– إلي المصطلح الملائم، يمكننا – حينئذ – اللجوء إلي التعريب، فهو (آخر ما يُلْتجأ إليه في النقل، عندما لا توجد كلمة عربية تترجم بها الكلمة الأعجمية، أو يُشْتَقّ منها اسْمٌ أوْ فِعْلٌ، أو يتجوز منها مجاز، أو ينحت منها لفظ، فحكم الناقل هنا حكم المضطر يركب الصعب من الأمور، ولا ضير عليه وقتئذ).[3]

واللجوء إلي التعريب عند الضرورة هو – كذلك – ما ذهب إليه مجمع اللغة العربية بالقاهرة في قراره الذي يقول : (يُجيز المجمعُ أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية – عند

---

(١) دراسات في فقه اللغة د/ صبحي الصالح ص٣١٤، ط١٢، ١٩٨٩م دار العلم للملايين بيروت – لبنان.

(٢) تحدثت عن هذه الطرق بشيء من التفصيل في: اللغة العربية في العصر الحاضر– مشكلات وحلول ص٤٦٨ وما بعدها.

(٣) التهذيب في أصول التعريب د/ أحمد عيسى ص١٢٥، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م، دار الآفاق العربية، القاهرة، وينظر: العربية لغة العلوم والتقنية د/ عبد الصبور شاهين ص٣٠٩، ط٢، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، دار الاعتصام، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم د/ كمال بشر ص٢٣٥، الناشر دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة .

الضرورة – على طريقة العرب في تعريبهم).[1]

والتزامنا بذلك يجعل التعريب عند الحاجة لا يتعارض مع قدرة اللغة العربية على العمل على وِحْدَة الأمة وتماسكها، بل يُعَدُّ مصدر ثراء لهذه اللغة، وشهادة على مدى تقبّلها للألفاظ الدخيلة والمعرّبة، وأنها تستوعبها في معجمها اللغويّ، بل تأخذ هذه الألفاظُ حُكْمَ الألفاظ العربية من حيث جواز الاشتقاق منها، أي أنها تُعامَل معاملة اللفظ العربيّ، حسب ما ذهب إليه علماء العربية – قديمًا وحديثًا – في هذا الشأن.[2]

(١) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامًا (مجموعة القرارات العلمية) ٣/ ٨٣، ط٢، الثانية ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

(٢) ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطي١/ ٢٨٦ وما بعدها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين – ط – دار الجيل – بيروت، الاشتقاق والتعريب أ/ عبد القادر المغربي ص٤٨، ط٢، ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

الخاتمة

- ابن جني (ت ٣٩٢هـ) هو أول مَنْ عَرَّف اللغة - فيما نعلم - ورغم ذلك جاء تعريفه وافيًا.

- تَنَبَّهَ علماؤنا القدامى - منذ وقت مبكر - إلى أهمية العناية باللغة العربية والحفاظ عليها.

- العناية باللغة والاهتمام بها ضرورة دينية؛ لأنها لغة القرآن الكريم، وضرورة قومية؛ لأنها من أهم عوامل الحفاظ على الهُوِيّة، والعمل على وِحْدَة الأمة وتماسكها.

- من أهم عوامل بقاء اللغة العربية رغم ما واجهته من مكائد: القرآن الكريم، والاعتزاز بها، والعناية بالشعر العربي، نظمًا ورواية وتدوينًا، وما بذله علماء العربية للحفاظ عليها.

- من أهم وسائل نشر الفصحى: الاهتمام بها في وسائل الإعلام المختلفة، وعلى شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، وفي مؤسسات التعليم العربية.

- كان للغة العربية دور كبير - ولم يزل - في الحفاظ على وِحْدَة الأمة وتماسكها من التفكك والانحلال والذوبان في الآخر، ومما ساعد على ذلك أنها كانت الوعاء الذي استوعب الفكر الإسلامي في مختلف فروع المعرفة الإنسانية، واستوعبت ما استجدّ من مصطلحات منذ مجيء الإسلام، ويضاف إلى ذلك مقدرتها على استيعاب المفردات الأجنبية اللازمة للتعبير عن مستجدات العصور المختلفة.

أهم المصادر والمراجع

- أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، ط٣، ٢٠٠٥م، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة.

- الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم، طبعة محققة، وقُوبلت على النسخة التي حققها الشيخ أحمد شاكر- تقديم د/ إحسان عباس، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي- ط٢، ١٣٦٩ه، الناشر: مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.

- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، تحقيق: السيد صقر، ط٢، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م، دار التراث بالقاهرة.

- تحديات عصر المعلومات، د. نبيل علي، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م.

- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، عني بتصحيحه أوتو برتزل، مكتبة المثنى ببغداد، مصورة عن طبعة استانبول، مطبعة الدولة ١٩٣٠م.

- الثقافة العربية وعصر المعلومات، د. نبيل علي، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠١م.

- الخصائص، لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ط٣، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: د. محمود إبراهيم الرضواني، ط١، ٢٠١٠م، الناشر وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر.

- ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، ط٣، دار المعارف - القاهرة.

- الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، لأبي حاتم الرازي، تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني، ١/ ٨٣، دار الكتاب العربي ١٩٥٧م.

- شرح السنة، للبغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، ط٢،

١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت.

- العربية الفصحى – نحو بناء لغوي جديد، تأليف هنري فليش ، تعريب وتحقيق د/ عبد الصبور شاهين، ط٢، ١٩٨٣م، دار المشرق، بيروت، لبنان.

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، ١٤٠١هـ ١٩٨١م ، دار الجيل، بيروت - لبنان.

- غريب الحديث، لأبي عبيد، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، ط١، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن.

- فقه اللغة العربية، د. إبراهيم نجا، دار الحديث بالقاهرة، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م

- في فقه اللغة، د. عبد العزيز علام، د. عبد الله ربيع، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

- في اللغة والأدب – دراسات وبحوث، د. محمود محمد الطناحي، ط١، ٢٠٠٢م، دار الغرب الإسلامي.

- لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف بمصر.

- مدخل إلي علم اللغة الحديث، د. عبد الفتاح البركاوي، ط٤، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

- مقدمة ابن خلدون، تعليق أبو مازن المصري، وكمال سعيد فهمي، المكتبة التوفيقية، مصر.

- من قضايا اللغة العربية المعاصرة، لمجموعة من الباحثين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩٠م.